اعترافات فتاة العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل السادس

وكنت فى ذات ليلة عند مدام بيارسون وكان قد مر علىّ ثلاثة أشهر لم يفتني منها يوم دون أن أجتمع بها ، وما أذكر من هذه الأيام إلا أنى كنت أراها ؛ وقد قال لابرويير : يكفى الانسان أن يوجد قرب من يهوى سواء استغرق فى تفكيره أو تكلم ، وسواء اتجه فكره إليه أو إلى أى موضوع كان .

كنت عاشقاً . مرت علينا ثلاثة أشهر ونحن نتمتع بالتنزه ساعات طويلة فاطلعت على أسرار أعمالها المبرورة ؛ وكنا نجتاز الغابات وهي ممتطية مهراً وأنا أمشى وراءها وبيدى عصا صغيرة . فكنا نذهب حاملين همنا وحبورنا لنقرع أبواب الأكواخ

وكان على مدخل الغاب مقعد خشبي كنت أذهب فأجلس عليه كل مساء بعد العشاء ، فألتقى بها هنالك كأن الصدفة تسوقنا إلى هذا المكان بلا موعد .

وفى السهرة كنا نلعب بالورق مع عمتها قرب الموقد كما كان الحال فى عهد والدى ، وهكذا كانت أمامى فى كل آن ومكان تملأ ابتساماتها جوانب قلبي

بأى قضاء قدتنى إلى الشقاء أيتها العناية العلياء ؟

وماذا كان علىّ أن أقتحم من قبل لأصل إلى هذه الحياة الحرة ، إلى مثل هذا الولاء والراحة حيث تنبثق أوائل ذرات الآمال .

على م يشكو الناس الحياة؟ لهم الله ! أليس لديهم الحب ؟ وهل من شئ أعذب من الحب ؟

أفما يكفي الحب إحساناً أنه يجعل الانسان شاعراً بالحياة مدركا بأنه خليفة ربه ؟

حذار أن تشك فى الحب فهو سر لن تجد له تفسيراً ؛ ومهما قيده الناس بأنواع الاغلال وأحاطوه بالدنايا والأقذار ؛ ومهما تراكم فوقه من المعتقدات السخيفة مايشوهه ويفسده فانه لايبقى بين هذه الأقذار القوة العنيفة المسيطرة ، والناموس السماوى الذى يتساوى بقدرته وتعاليه عن الادراك ، والناموس الذى رفع الشمس فى أفلاكها . .

ماهي هذه الرابطة التى تشد الناس بقيود أصلب وأمتن من الحديد وهى لاتلمس ولا ترى ؟

يصادف رجل امرأة ، فما هي إلا نظرة وكلمة فاذا هذه المرأة راسخة فى تذكاره لايجد إلى محوها من صفحاته سبيلا .

من الذى قضى بأن يحدث هذا الانطباع من ذات هذه المرأة دون سواها ؟

ارجع إلى العقل والاعتياد والحس ؛ الجأ إلى رأسك وإلى قلبك وعد بالايضاح إذا تمكنت منه ، فانك لن تجد أمامك إلا جسدين يواجه أحدهما الآخر وليس بينهما إلا الهواء والمدى .

ما أسخف من يعتقد بانسانيته ويجسر على اقتحام الحب لتحليله ، أرأيتم الحب لتصفوه ؟

إن أحداً يره ، بل شعرتم به شعوراً منكم لم

لقد تبادلتم النظرات مع شخص مجهول مر بكم فشعرتم فجأة بانطلاق شيء منكم لايحيط به اسم ولا يحدده تعبير ، فوقف الهوى بكم يشد بأعراقكم إلى الأرض كأنكم حبة الحنطة تشعر بالحياة تستنبت منها سنابل الحصاد .

وكنا جالسين سوية أمام النافذة المفتوحة تطل على حديقة يخر فى طرفها ينبوع صغير تصل سقسقته إلى آذاننا . ولكم أتمنى لو أنني أعيد الآن ما أسالت هذه العين من قطرات ونحن نتبادل الحديث ؛ تلك أويقات كنت أتمل منها حتى لاأعمى

يقولون إنه لا شيء أسرع إلى القلب من الشعور بالنفور ، غير أنني أرى أسرع منه إلى القلب الشعور بالتفاهم ويترصد الحب للمتفاهمين . فان لكل كلمة فى هذه المرحلة الأولى قيمة تفوت كل تقدير وما يقف الفكر عند ما تنطق به الشفاه عند ما تتجاوب فى أحاديثها القلوب .

لله ما أحلى هذه النظرات الأولى يبادلها العاشق نظرات امرأة تجتذبه ؛ ولله أوائل حديث كأنه محاولات تفكير متردد وتجاوب بيان ؛ ثم يشعر العاشقان بفرح غريب إذ يتحقق كل منهما أن صوته قد أهاج صدى كامناً فى قلب الآخر فيحيا حياة مزدوجة يدهشه تقاربها وتلامسها ، وإذ يثق أحدهما بالآخر ويتيقن من حبه ويعلم أنه ظفر بالتآخي المنشود تفيض الروحان غبطة فتتعطل لغة الكلام إذ يسبقها الحس الباطن بياناً وإدراكا وإذا تخاطبت الروحان أسكت تخاطبهما الشفاه . فيالها من أويقات صمت يمحى فيها من التذكار كل الوجود .

وكان الحب قد قبض على مشاعرى منذ أول لقيا وتزايد حتى بلغ الهيام ؛ ولكنني استحييت من هذه المرأة فوجمت أمامها لا أبدى ولا أعيد .

ولو أن هذه الحسناء لم تفتح لى بيتها بمثل هذا الولاء لكنت عززت عاطفتى بشيء من الاقدام ولم أكبت هذه الأشواق العنيفة التي كانت تهزنى هزاً كلما فارقتها ولو إلى حين . ولكن ما كان يبدو لى من صراحة وإخلاص فى معاملتها لي كان كافياً لصدى عن كل إقدام ؛ وفضلا عن ذلك فان مدام بيارسون لم تبذل لى صداقتها إلا استناداً إلى اسم والدى ، وما كان هذا الاعتبار إلا ليزيد فى احترامى لها وفى ميلي إلى المحافظة على كرامة هذا الاسم .

قيل « إن مَنْ تحدث عن الغرام فقد كاشف من يحدثه بغرامه » لذلك لم أذكر الغرام إلا عرضا فى حديثي ؛ وكنت كلما تعرضت لكلمة الحب أرى جليستى تقتضب الكلام وتتحول إلى موضوع آخر ، وما كنت لأعرف لذلك سبباً ، غير أنى كنت فى مثل هذه المواقف ألمح على وجهها التجهم المتألم ؛ وما كنت سألتها شيئاً عن حياتها الماضية ولا خطر لي أن أفاتحها فى هذا الأمر لذلك ضربت صفحاً عن كل محاولة .

وكان يقام مرقص فى كل يوم أحد فى القرية فكانت تذهب إليه فى أغلب الأحيان ؛ وما كانت لتبدل شيئاً من بساطة ملابسها لهذه المناسبة بل كانت تكتفى بوضع زهرة تربطها على شعرها بشريطة زاهية فتزيد فى رونق شبابها . وكان الرقص يثير فيها المرح لأنها كانت تحبه كرياضة بريئة . وكان لها مقعدها الخاص قرب جوقة الموسيقى ، فكانت تتوجه إليه قافزة ضاحكة لتجتمع بصويحباتها ثم تندفع إلى الرقص دون انقطاع . وكنت ألاحظ زوال الكلفة بيني وبينها فى هذه الأوقات ؛ وما كنت أشترك فى الرقص لأنني لم أزل فى مدة الحداد . ولكم خطر لى حين أراها مرحة أن أنتهز الفرصة لأبوح

لها بحبي . ولكنني ما كنت أحاول ذلك حتى أشعر برهبة لا أستطيع مقاومتها فأعود إلى موقفي الجدي . وعزمت مراراً أن أكتب إليها ولكنني مزقت جميع رسائلي قبل أن أصل إلى نصفها .

وفي هذا المساء كنت تناولت العشاء معها فكنت أنظر إلى ما حولي من هدوء وسلام وأفكر في الراحة التي ذقتها منذ تعرفت إليها ، فقلت في نفسي ولماذا أطلب مزيداً على هذا ؟ أفما يكفيني ما أتمتع به ؟ فما أدري لعل الله لم يقدر لي مزيداً . ولعل هذه المرأة تصدقني إذا أنا أعلنت حبي لها فأحرم مشاهدتها . وهل إذا قلت لها إنني أحبها سأزيد في سعادتها ؟ وهل أبلغ أنا سعادة أوفر من التي أتمتع بها الآن ؟

وكنت أفكر في هذه الأمور وأنا مستند إلى البيانو فشعرت بحزن شديد يستولي علي ، وبدأ الغسق يمد ظلاله ، فأوقدت شمعة ثم عادت نحو مقعدها فرأت دمعة تتدحرج على خدي فقالت : — مالك ؟ فأدرت وجهي

والتمست عذراً فما عثرت على ما أعتذر به . وحاذرت أن تقع عيناها على عيني فتوجهت نحو النافذة . وكان الهواء يهب بليلا والقمر يطل مرة وراء أشجار الزيزفون حيث كنت رأيتها لأول مرة فحكمني الذهول ونسيت كل شيء حتى وجودها هي ، ورفعت ذراعي نحو السماء فخرجت زفرة كأنها الأنين من أعماق فؤادي

ونهضت من مكانها فإذا هي واقفة ورائي تقول :

— ما هذا ؟

فقلت لها لقد تذكرت أبي وفجيعتي بموته عندما رأيت هذه الأشجار

واستأذنت بالانصراف وخرجت

وما كنت أعرف سبباً لإصراري على الصمت ، وبدلا من أن أتوجه إلى مسكني ذهبت شارداً في القرية وفي الغاب ، فكنت أجلس حيث أجد مقعداً ثم أنهض فجأة . وما انتصف الليل حتى رأيتني أقترب من بيت مدام بيارسون فرأيتها مطلة من النافذة فارتعشت وأردت أن أنكص على أعقابي فوقفت كالمأخوذ ثم تقدمت على مهل وقعدت تحت نافذتها ولا أعلم إذا كانت عرفتني . ومرت دقائق على وجودي فسمعت صوتها الناعم الرنان يتعالى بنشيد هيام ، وشعرت بزهرة تسقط على كتفي فإذا هي وردة كانت تحلي بها صدرها في المساء ، فرفعتها إلى شفتي فقالت :

— من هنا في مثل هذه الساعة ؟ أهذا أنت ؟

وناداني باسمي . وكان الحاجز مفتوحاً فنهضت دون أن أجيب ؛ ودخلت الحديقة ، وإذ وصلت إلى وسط المرج توقفت لأني كنت كسائر في المنام لا أعي ما أفعل

ولاحت على باب الدرج وهي تحدق بإشعاع القمر وقد بدا التردد على ملامحها . ومشت نحوي فتقدمت إليها وعصاني الكلام فانطرحت جاثياً أمامها وقبضت على يدها

فقالت : اصغ إليّ . أنا عارفة . ولكن إذا كان بلغ الأمر منك هذا الحد فيجب أن تذهب . أنت تجيء كل يوم فنرحب بك . أفما يكفيك هذا ؟ وما يوسعني أن أفعل من أجلك ؟ أفما بذلت لك صداقتي ؟ ولكم كنت أتمنى لو أنك حافظت على صداقتك لي إلى أمد أطول

* * *

الفصل السابع

قلت هذا وسكتت كأنها تتوقع جواباً . وإذ رأتني لا أزال متهدماً تحت وقر أحزاني سحبت يدها من يدى على مهل وتراجعت خطوات ثم وقفت لحظة وتولت إلى بيتها

وبقيت على المرج وكنت أتوقع أن أسمع منها ما سمعت ، لذلك لم أتردد فى التصميم على الذهاب . وقفت وفى قلبى غصة وانطلقت أجوب أنحاء الحديقة وأنا أحدق بالمسكن وبنافذة غرفة مدام بيارسون ؛ ثم عدت أدراجى إلى الحاجز وخرجت مغلقاً الباب ورائي ؛ وقبل أن أبتعد وضعت شفتى على القفل وقبلته طويلا

وعند ما وصلت إلى مسكنى طلبت من لاريف أن يعد متاعى لأننى أزمعت السفر فى الصباح ، فدهش المسكين لهذه المفاجأة ، فأشرت إليه بأن ينفذ الأمر دون أى استفهام . فأحضر صندوقاً كبيراً وأخذنا نضع المتاع فيه

وكانت الساعة الخامسة صباحاً وقد لاحت تباشير الصباح فوقفت أسأل نفسى الى أية جهة سأسافر ؟ وما كان خطر لي هذا الأمر حتى الساعة ، فاضطربت له ووهى تجلدى ، فسرحت أنظاري على الحقول وما وراءها من آفاق فاستولى الوهن علىّ فاستلقيت على مقعد وتبلبلت أفكاري . رفعت راحتي الى جبيني فاذا هو يتصبب عرقاً . وشعرت بحمى شديدة تهز جميع أعضائى ، فنهضت أطلب فراشى وأنا أستند الى ذراع لاريف . وطرأ علىّ الذهول فما كنت أذكر شيئاً مما جرى لي . ومر النهار وأمسى المساء فاذا بنغمات موسيقية تصل الى أذنى فتذكرت أن اليوم يوم أحد ، فأدركت ان المرقص قد دار فأرسلت لاريف ليرى ما اذا كانت مدام بيارسون موجودة فيه . فعاد لاريف قائلاً : انها ليست هناك . أرسلته الى بيتها فرأى النوافذ مقفلة ، وقالت له الخادمة ان سيدتها سافرت مع عمتها لقضاء بضعة أيام عند أحد الأنسباء فى مدينة . . . وهى مدينة صغيرة تبعد مسافة ليست قصيرة عن القرية . ودفع الىّ لاريف بكتاب سلمته إياه الخادمة جاء فيه ما يأتى :

« منذ ثلاثة أشهر لم أنقطع عن مشاهدتك ؛ ومنذ شهر اتضح لي أنك أخذت بالعاطفة التي يدعوها من فى سنك غراماً . وكنت أحسب انك مصرٌّ على كتمان أمرك والتغلب على نفسك . لقد كنت أحترمك وليس لي أن أوجه أية ملامة اليك عما حدث وعلى فشل عزمك .

ان ما تحسبه حباً ليس إلا شهوة ؛ ولا أجهل ان كثيرات من النساء يحلو لهن تنبيه مثل هذه الشهوة وكان الأجدر بهن أن يرضين كبرياءهن باكتساب الاعجاب دون اثارة الشهوات ، ولكننى أرى الآن ان هذه الكبرياء نفسها خطرة وقد أسأت باندفاعى معها تجاهك .

انني أسبقك فى مرحلة العمر بسنوات ، فاطلب منك ألا تحاول الاجتماع بي لأن من يستسلم لضعفه لن يجد بعد ذلك للنسيان سبيلاً . ان ما جرى بيننا لا يمكن العود اليه ولا يمكن أن يُنسى تماماً .

انني لا أفارقك بلا حزن ، فأنا سأتغيب عدة أيام . فاذا بارحت البلد أثناء غيابي فانني لأشكرك على ذلك كدليل على ما تشعر به نحوي من صداقة واحترام . »

بريجيت بيارسون

الفصل الثامن

وألزمتنى الحمى الفراش أسبوعا كاملا . ولما استعدت قواى كتبت إلى مدام بيارسون أقول لها إننى أطيع أمرها ، وكتبت هذا العهد وأنا عازم على القيام به غير أننى مالبثت حتى عدلت عنه .

استقللت عربة فسارت تبعدنى عن القرية حتى إذا أصبحت منها على مسافة ميلين صرخت بالسائق فأوقف السير وترجلت أتمشى على الطريق وأنا معلق أبصارى على البلد الذى قررت مبارحته ، ووقفت تتنازعنى عوامل بلبلت من خاطرى ، فشعرت بأننى أعجز من أن أتابع طريقى وأن مواجهتى الموت فى مكانى أسهل علي من ركوب العربة المولية . وأصدرت أمرى الى السائق بالنكوص وبدلا من الاتجاه نحو باريس انطلق الفرسان يقطعان الابعاد إلى قرية . . . حيث تقيم مدام بيارسون .

وصلت إلى هذه القرية عند الساعة العاشرة ليلا ، وما كدت أنزل فى الفندق حتى طلبت من الخادم أن يدلنى على بيت نسيب بريجيت . فذهبت إليه ، وإذ قرعت الباب قابلتنى الخادمة فقلت لها أن تبلغ سيدتها أن رسولا من قبل دسبريس كاهن القرية يطلب مواجهتها .

وتوارت الخادمة فى الدهليز فوقفت فى الباحة وكان المطر يتساقط ، فتقدمت إلى قبو تحت الدرج أتقى فيه البلل ؛ وبعد فترة نزلت مدام بيارسون تتبعها خادمتها فما رأتنى وأنا فى الظلمة ، فتقدمت إليها ووضعت يدى على ساعدها فرجعت مذعورة ونادت: « ماذا تريد منى ؟ »

وكان صوتها يرتجف ؛ وإذ تقدمت الخادمة بالنور رأيت وجهها ممتقعاً إلى درجة حسبتها نافرة منى لولا أننى ملت إلي الظن بأن ارتياعها ناشئ عن المفاجأة ليس إلا .

ولكنها تمالكت روعها وكررت كلمتها بكل هدوء ، فقلت لها : أطلب إليك أن أراك للمرة الأخيرة . فانى سأسافر وأترك هذه البلاد فأصدع بأمرك بل أذهب إلي أبعد ماتقصدين . أقسم لك بأننى سأبيع بيت أبى وكل مايملك لأهاجر إلى البلاد الأجنبية ؛ ولن أنفذ هذا القسم إلا إذا قابلت رجائى ، وإلا فانى أبقى . . لاتخافى . فانى مصمم على هذا .

فقطبت حاجبيها وأجالت نظرات غريبة إلى ما حولها ثم قالت فى شىء من اللطف : تعال غداً فى النهار فأقابلك . وذهبت .

ذهبت إليها فى اليوم التالى عند الظهر فأدخلتنى الخادمة إلي غرفة قديمة الرياش حيث وجدت مدام بيارسون وحدها فجلست تجاهها وقلت : — ما أتيت لأشرح ما أعانى أو لأنكر مافعل حبك بى . لقد قلت لى فى كتابك إن ماجرى بيننا لايمكن نسيانه فما أصدق ماعبرت عنه ؛ غير أنك قلت بعد ذلك إن اجتماعنا على ما كنا عليه من قبل أصبح مستحيلا ، وهذا مالا أراك على حق فيه . أنا أحبك وما فى ذلك إهانة لك ؛ فموضعك لم يتغير مادمت أنت لاتحبيننى ، فاذا ماعدت إلى الالتقاء بك فلن يكون مدار الأمر إلا على وحدى وحبي لك كافل لك صيانتك .

وأرادت أن تقاطعنى فلم أتوقف بل تابعت قائلا :

— بحقك اسمحى لي أن أذهب إلى آخر حديثى . إننى أعلم ولا يعلم أحد أكثر منى أن حبى سيتغلب على كل ما لك من حرمة عندى وعلى كل عهد أقطعه تجاهك على نفسى . وأنا أكرر لك القول بأننى ما أتيت لأنكر عليك مايضمره فؤادى ؛ وأنت أعلنت لى أنك عارفة بحبي منذ زمان فما الذى ردني حتى

اليوم عن إعلان هذا الحب لك ؟ إن ما ألزمني الصمت إنما كان خوفي من فقدك وحرماني من الاجتماع بك، وهذا الذي حاذرته قد وقع . فأنا أرضى بشرطك على أن توصدي بابك في وجهي إذا ما بدرت مني بادرة تنحرف عن احترامي الشديد لك . لقد تمكنت من السكون فيما مضى فلن أتكلم بعد الآن . أنت تظنين أنني أحببتك منذ شهر . لا ، لقد أحببتك منذ أول يوم . وأنت عرفت حبي فما دعاك ذلك إلى مني من مشاهدتك . فاذا كنت في هذه الأثناء واثقة من أن حرمتك لن تجيز لي أن أسيء إليك فلماذا تفقدينني هذه الثقة اليوم ؟ لقد أتيت مطالباً بهذه الثقة فما الذي ارتكبته تجاهك ؟ ألأنني طويت ركبتي على الأرض دون أن أنبس بكلمة أعد جانياً ؟ وهل عرفت من هذه الحركة شيئاً كنت تجهلينه قبلها ؟ لقد وهنت قواي لأنني كنت متألماً فاصغ إليّ يا سيدتي . إنني في العشرين من عمري ومع ذلك فقد رأيت من الحياة ما أورثني كرهها حتى غدوت لا أرى لي فيها مقاماً أرتاح فيه ، لا بين الناس ولا في العزلة والانفراد ؛ وليس لي من مستقر أتنفس الحياة فيه إلا هذا المدى الذي تحده جدران حديقتك . إنك دون سواك الكائن الذي أومن قربه بالله . ولقد كنت أعرضت عن كل شيء قبل أن عرفتك ، فلماذا تريدين حرماني من الشعاع الوحيد الذي منحني الله إياه من الشمس ؟ فاذا كان الخوف يدعوك إلى هذا الاحتياط فهل أتيت ما يبرر هذا الخوف ؟ وإذا كان سببه نفرة مني فبأي عمل استحققت هذا النفور ؟ أما إذا كان ما دعا إلى هذه المعاملة إشفاقاً على ما احتملته من الآلام فانك منخدعة في اعتقادك بامكان شفائي . لقد فات إمكان الشفاء منذ شهرين ، ولكنني فضلت أن أحتمل آلامي بقربك . ولست بنادم الآن ولا غداً على هذا مهما فعلت بي الأيام . إن الشقاء الذي أحاذره هو فقداني إياك . ألق التجارب عليّ فاذا ما بلغ بي الألم حداً لا قبل لي باحتماله فانني لن أتردد في الرحيل . وأنت واثقة من خضوعي لانني مستعد اليوم للسفر تنفيذاً لأمرك .

وتوقفت أنتظر جوابها ، فنهضت من مكانها فجأة ثم عادت فاستلقت على مقعدها وبعد صمت قصير قالت :

— كن واثقاً من أن الأمر ليس على ما تظن .

ولحظت أنها تتلمس في تذكارها كلمات تخفف من صرامة بيانها فوقفت وقلت لها :

هي كلمة واحدة لا غير أطلبها منك . أنا لا أعرف من أنت فاذا كان في قلبك رحمة فأنا أشكرك عليها . قولي هذه الكلمة فان حياتي متوقفة عليها .

وهزت رأسها بتردد ، فاردفت قائلا : إنك تظنين أنني سأشفى وأنا أسأل الله ألا يحرمك من هذا الظن . إذا أنت طردتني الآن .

ونظرت إلى الأفق فرأيت العزلة تنتصب أمامي ورأيتني طريداً شريداً فشعرت بتجمد الدم في عروقي ونظرت إليها وأنا واقف أعلق عليها أبصاري وأنتظر جوابها وكانت كل حياتي معلقة على شفتيها .

فقالت : اصغ إليّ . إن قدومك إليّ كان مجازفة ، فيجب ألا يعلم أحد أنك أتيت من أجلي وسوف أعهد إليك بمهمة تقوم بها ، فاذا ما رأيت السفر في هذه المهمة طويل الأمد فلك أن تقصره ؛ ولكن إلى حد ، وعلى كل حال أرى سفرك إلى حين سيسكن من اضطرابك

إنك ستذهب إلى « الفوج » ومنها إلى ستراسبورغ وعندما تعود بعد شهر أو على الأصح بعد شهرين تطلعني على نتيجة مهمتك وعندئذ أتمكن من أن أعطيك جوابي بأصرح مما يمكنني أن أفعل الآن

(يتبع) فيليكس فارس